الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس، مؤلِّف هذا الكتاب

(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولـمَّا كُنْتُ في تلك الفترة، بَدَتْ أُمورٌ وأسبابٌ دَلَّت على ماكان من الانتقال ومُقدِّماتٌ آذَنَتْ بالزوال. فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لعِلَّةٍ نذكرُها، وأَرَقَّ سبب لم يُوبَهْ له. وذلك أنّي، لـمَّا أمرتُ ببُنيان السُّور الـمتَّصل بالحمراء، ودبَّرتُه على تلك النُّصْبة التي أضْرَبتْ عن شرْحِها لاشتهارها هيَّأت السعادةُ أن وَجَدَ البَنَّاؤون في الأساس قُمْقُوماً مملوءًا ذهباً أَعْلموني به.

فلما وقفت عليه، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مِثْقال جعفرية. فاستبشرتُ بها وتفاءَلْتُ بنجاح الطلبة، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرت بمن كان قبلنا. فقلتُ: «من أساسِهِ يكون بُنيانُه!».

وكانت دارُ أبي الربيع اليهوديّ الخازن للأموال في دولة جدّي – رحمه الله – مبنيَّة على ذلك الأساس؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون. فأتَى ابن المرَّة متنصِّحًا بالأمر، ويقول: «أرسلوا عن ابنه، يكشف لكم سائر دفائِنه» فخاطَبْنا عنه ليَردّ علينا في بعض الأمر. وكان صِهْرُهُ ابن ميمون، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة، وأَسْدَينا إليه جميلاً من التنويه به؛ فاستمال بها أقوامًا من الغُرَباء، يصول بهم على أهل مِلَّته؛ وكان خبيثاً. فأحَسّ بالقِصَّة، ووجست نفسه منها، واعتذر عن صهره، وساءَ لذلك ظنُّه، وخشي أن يُعذَّب على مال أبيه.

ووافقَ قَبْلَ ذلك، عند انصرافنا من لِيِّيط، أن فَرَضْنا على أهْل اليُسَّانة ذهباً كثيراً باسْم التَّقْوِية، لم تَجْرِ عادتُهم به، وحمَلْناهم في ذلك على الصحَّة والانطباع؛ فنَفَرَتْ لذلك أنْفُسُهم. ووجد ابنُ مَيْمون الـمذكور السبيلَ إلى إغْرائهم وحَمْلِهم على النفاق؛ فأجابوه، ودخلوا في السلاح؛ ونادَى فيهم أن: «جِدُّوا، مَعْشَرَ بني إسْرَائيل، في حماية أموالكم!» وافتضح بذلك ابن مَيمون. وسَبَقَتْ له جنايةٌ في قتل* [ق ٥٤ أ] عامِلِنا ابن أبي لَوْلا على الـمُسْتَخْلَص رياسةً وعدوانًا. وامتَنَعت اليُسَّانَةُ بالجملة.

فلَمَّا رأيتُ ذلك، لم أجدْ بُدًّا من مُدارة الأمر. واشْتَرَط مُؤَمَّلٌ بإصلاحه، ونهض. ثُمَّ إنِّي عملت رأيي بَعْدَه، وعَلِمتُ أنّه لا يلقى إلاَّ أحَد وجْهَيْن: إمَّا طاعةً على غِشٍ، أو عصيانًا؛ وأيُّهما كان، فإرسال العسكر إليه واجِبٌ، وشِدَّةٌ وتَرْهِيبٌ، ليعلموا قَدْر ما جَنَوه. وخَرَجْتُ بنفسي في أثره، وقد اجتمعت إلىَّ الأنداب. فإذا بمُؤَمَّل قد أقْبَلَ مُنْصَرِفًا، وردَّنا

عــن ذلك الـمذهَب، وقال لى: «قد أَصْلَحْــتُ الأمرْ مع ابن مَيْمون. ونُهوضُك إليه لايزيد القوم إلاّ نفاراً، وربمّا اســتعانوا بعسكر ابن عَبَّاد، لاسيمًا أنه الآن بقُرْطُبة، وليست تُؤْخَذ بإحصار ولا قتال!» على أنّى قد عَلِمتُ أنّ ابنَ عباد لا يجيبهم فى ذلك الوقت كلّه، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه، وابن مَيْمون يفتخر به ويُطْمِع به أهل اليُسّانة.

فقبلتُ قولَ مُؤَمِّل، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة؛ وقلتُ: «خُرُوجِى إلى هُنا أو وصُولى إليهم سَــوَاء! إذا أردنا التَّهْييب، فقد وَصَلْناهُ!» ثمّ قلتُ لـمُؤَمِّل: «صِفْ علىّ ما انفَصَلْتَ!» فقال: «إنَّ ابن مَيْمون زَعِيمَها عَدَّدَ أشياء أنْكَرَها من الإرْسالِ في صهره، وهذِه الفرضةِ العظيمةِ، وســائرِ ذلك من الألقاب اللازمة. فضمنتُ لهم الصكوكَ برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون فى خاصَّتِهِ.» وأمرتُ بعَقْدها والإرسال بها. وقرّت الجبالُ قرارها.

ووجَســتْ نفســى من ابن مَيْمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك، وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدْنَةٌ علــى دَخَن، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه، وســيؤثر أمثال هــذه. فَدبَّتْ إلى الـمُداخَلة من اليهود المخمولين فى زمانه، ووعدتُهم بالإحســان؛ وتكرّر فى الوســاطة ابن سِيقِى، حتى أبْرَمْتُ من ذلك ما أمّلتُه. وكان أخْذُ ابن مَيْمون يســيراً، لاعُصْبَةَ له، وهو غافِل. وكان الواســطة أيــضًا ابنُ الـمَرَّة مع أبى العبّاس الحكيم. وكان *[ق ٥٤ ب] ذلك ممَّا نقمه مُؤَمِّل لانحياشــه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادَتِهم، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاءٍ من الشــيوخ، وأمرتُ أن لازعِيــم فيهم بعد اليوم إلا الكلّ منهم أمَنَاءُ مَنَّوْه بهم؛ فشــكروا ورَضَوْا. وخاطَبْتُ عامَّتَهم نُعْلِمهم بما لهم فى ذلك من الصلاح. وتهدَّنت الأحوال وقرّت، إلى أن تلف الكلّ.

٦٢ - قضيَّة زناتة

وقَضِيّــة أُخْــرَى بَعْــد هذه فى أمْــر زناتة: إنّه، لما أعملــتُ الفكرة فى عاقبــة الأمر فى هذه الفِتَن [١] العارضة، رأيت أنَّ الاهتبال بالـمَعاقل من آكَدِ مايجبُ النظرُ فيه، كالذى تقدَّم ذِكرُه من النظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها، وأنَّ الأوْلَى اســتصلاحُ ما فســد من نفوسِ قوّادِها. وذلك أنّه لم يكن يَلِى لنا مَعْقِلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصْفان والعَبِيد، ما خَلاَ زَنَاتَة: فإنَّهم كانوا أجْنَاد الحضرة.

وكان الصِّنْــفُ الـمذكور قد ضَعُفَ؛ واســتولى عليه النقصانُ لـمُطالبــاتٍ جرَتْ عليهم من قِبَــل وزراءِ الدولــة كاليهــودىّ وغيره؛ فإنّهم كانــوا يَرَوْن ألاَّ ولاية تتهيّــأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إيَّاهم وأنَفَتِهم من توليةِ مِثلهم، فكانوا يميلون إلى الصِّنْف البرّانىّ كلّه، ولـمّا جرى على اليهودىّ ماجرى منهم، اعتقَدَها النايةُ فى نفســه، وخشــى مثل ذلك، فجعل نفسه فى مطالبتهــم، وتبديدهم، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة؛ ومن كان بيده شــىءٌ تُسُــبِّب إليه وأُزيــل عن يــده. فأدْركهم النقصانُ والقلّةُ، وزاد فى زنَاتَة، وقويتْ أحوالهم وإنْزالاتُهم، على أنهــم كانــوا على الحقيقة خيرة جُنــدِ الأندَلس، والموثوق بهم فى الشــجاعة والنجدة. وكان الصِّنفُ كثيراً، لايعدم ضمَّهم مَنْ له مالٌ.

---

(١) أصل: «الفتون».

فقُلتُ فى نفسى: «هؤلاءِ القوّاد الذين على الحصون، وإذا كانت أنفُسهم فاسِدةً، ولايتذكّرون معنــا على نعمة طائلة، فكيف يُمسِــكون المعاقل، أو بأىِّ قلب يجــدُّون معى؟ وإنه لا عِوَض منهم فى الثّقةِ للحصون * [ق ٥٥ أ] وإن زَنَاتة هؤلاء المُتأصِّلين لا ثِقةَ فيهم للمدينةِ الفُوقَى ولا للحصــون، أكثر من خدمة الجُندية، لا يَعدَمُ منهم أحدٌ. فأنا جديرٌ أن أُشْــرِك مَن ضَعُف من صِنْهاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدْرَكَتْهم العناية ويُمسِــك واحدٌ منهم إنزال خَمســة فُرْسانٍ وستَّةٍ. ثمَّ من قنعٍ بما بيدهِ بَقِىَ؛ ومن لم يُرِدْ، لم نعدَم منه العِوَض!» ففعلتُ ذلك، وأشرَكْتُهم. وكان فى هذا كلّه تَحْرِيكٌ لِلشرِّ والقال:

إذا لــم يَـكـن عَــوْنٌ مــن الله لـلـفـتــى فـأكْـثَـر ما يـجْـنَى عـلـيـه اجتهادُه[1].

فلمَّا رأى كبارُ زَنَاتة ذلك، قلقوا، وساءَت ظُنونُهم؛ فكُنتُ، متى دعوْتُهم إلى خِدْمةٍ، نَجدِهُم عنها عاجزين: من أُشْرِك ومن لم يُشْرَك؛ فامتحنتُ على ذلك؛ فقيل لى: «إنّ كِبارَهم يفسدون صغارَهم! ولو أنّك تُخْرِج غَوْغَتَهم[2] من البلدة، لصَلُح لك سائرُهم!»

فأمَــرْتُ بإخــراج ثلاثة أنفس ممَّن يتّهم منهم وكان المأمــورَ بذلك لَبِيبٌ الخصىُّ، صاحبُ المدينة ذلك الوقت، وثقناه لتربيتِنا له. وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتّهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريقتَه السّيّئة؛ فأصاب الفُرْصة للخراب، وأرسل من قِبَلِه إلى أولئك الْمُخرَجين، وإلى من سِــواهم من بنى عمِّهم، يقول لهم: «إنّ الطلَبَ قد وقَع فيكم من مَجْلس الســلطان؛ وأمِرْتُ بإخراجِكــم . فلا توهِنوا، واجْتهدوا فى التّعصُّب عليــه وتَرْويعِهِ! وأنا مَعكم! فإنه، إذا رأى جماعَتَكم، رجع إلى قَوْلِكم!» فلم يكن إلاّ بعد الأمر بســاعةٍ، وإذا بجماعة الجُند قد أقبلوا إلى باب المدينة، يقولون : «إمَّا أن يَرُدَّ شِــرْكَتَنا، وإمّــا فالكلُّ راحلون عنه، مُنْتَقِلون إلى غيره!» وأتَى الفاسِــقُ لَبيبٌ وأصحابُه المُتّفقون معه، يقيــم حُجّتهم، ويُعضد قولَهم، ويخوّف منهم . فَميزّتُ الأمَر، وعَلمتُ أن هذه جَعجعَةٌ لا يُرجَع فيها إلاّ إلى رأى؛ فأظهرْتُ الشّدَّة، وقلتُ : «لستُ براجعٍ عمّا أبرمْتُ؛ فتكون نفوسُ الذين أشرَكتُ معهم مُنْصرفة * [ق ٥٥ ب] إلى مثل نفوسهم! فمنْ شاءَ فَلْيمُرَّ، ومنْ شاءَ فلْيبْقَ!» فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ .

ومُؤَمِّلٌ، فى هذا كلّه، على اتّفاق مَع لبيب، يدخل فى رؤوس الجنْد ويقولون لهم: «إنَّ هذا مــن قِبَل غيرنا؛ ونَحنُ أبرياء!» ويرونهم الشــفقة من الأمر والطّعن علــيَّ. وصَحَّ ذلك عندى مع طائفةٍ مـن شــيوخ العبيد أصحاب مُؤَمّل، وعملتُ حســابَ زَناتة أنّهم لا يَزُولون بالكلّ، وأن ذلك ترْهيبٌ، وأنّ الرَجوع عمَّا أمرتُ به يضربهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكوّن لهم الصولة والحماقة فى المعصية، وأن انقيادَهم للأمر واستعذارهم بعده أشْبَهُ، وللحُجّة عليهم أعَزُّ وأبهى.

فلمَّا كان يومٌ آخرُ، خرجتُ بنفســى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبَطّن علىّ من تقدَّم ذكْرهُ. فأمرت بالبريــح عليهم وإحضار الزمــام، لنعْلَم منْ صَحَّ مُضِيُّهُ وقعودُه فوجــدتُ الكلَّ مجتمعين، قد

(١) ورد هذا البيت أعلاه.

(٢) كذا فى الأصل، عوضاً عن «غوغائهم» .

انصرفوا مُتقطّعين ليلاً، لم يَغِبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أُمرتُ بإخراجهم، وجعلوا يَعتذِرون ويَتَنصَّلون. فقلتُ: «اللّه أكبر! هذا أَشبَهُ وأَلْيَقُ بالمملكة!» ورأيتُ مُؤَمّلاً ولبيباً وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعَتُهم مُؤَمِّلين أن لو كانت طامَّةٌ لا ترفع.

والعَيْن تُبْصُرُ في عَيْنَيْ مُحَدِّثِها إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعادِيها

٦٣ - انقلاب مؤمَّل وثورته في لَوْشة

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه، جاءَ مُؤَمَّلٌ في إثْر ذلك يقول: «إنَّ هذَا الانْطباعَ منهم ليس لرَغْبةٍ في البقاء معك! غير أنَّهم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزوَّدُوا به! فلا فائدٌ تنْزِل عليه غَيْرَهم، ولا رجالٌ بقوا معكَ؟» وكنتُ إذ ذاك ناظراً منه بعَيْن الثِّقة؟ فعمل قوله في نفسي، وقلتُ: «لايَخلو هذا القولُ عن وجْهَين: «إمّا قد اطَّلع على ذلك منهم، فهي نصيحةٌ، أو لم يطَّلِعْ، فهو بغائلته لا يَدَعُهم، ويدْخِل هذا في رؤوسهم، وتكون عليّ في ذلك الخسارة. وإن احتَجْتُ إلى العِوَض، لم يكن لي على ماتُنْزله ولا في بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله * [ق ٥٦ أ] من النفقات على سائر الأمم!» فلم يَأتِني من هذه الكلمَة نعاس. وأمرتُ بإخراج كلِّ من في رأسه حماقةٌ. فبلغ عِدَّتُهم نحو المائة فارس؛ فخرجوا عن المدينة، وتصَفَّتْ، ولم يَبْقَ فيها إلاّ مَنْ ينطاع لكلِّ أمرٍ.

وعَمَلَ في نفسي فِعْلُ لَبِيب وشيوخ العَبيد، وصحَّ عندي منهم وَفِيهِمْ أَنَّهُم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ، وكانوا أَشدَّ عليَّ من كلِّ أحَدٍ. وجعلَ زَنَاتَةُ يَذكُرون ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: «لاذنب لنا! إنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقاتُه وعَبيدُه الذين حملونا على ذلك، لم نجترم[1] عليه!» وجَعَلُوهم في وقتِ قيامِهم يمشون على الأسواق، ويأْمُرون الناسَ بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلاّ وهو يُريد إدخالَ النصارى!» فلم يلْتَفِت الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنْهاجة.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ، أمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثْنَين من شيوخ العَبيد الذَّيْن صحَّ عندي إشْغالُهم لهذه القضيَّة، وثَقَفْتُ لَبيباً. فوافَقَ إخْرَاجُهُمْ ومُؤَمَّلٌ خارجَ المدينة؛ فلحقوا به، وقالوا له: «قد أَخْرَجَنا! وغَدا بِكَ هَكَذَا! فانْظُرْ لنفسك!» فخَرَجَ معهم من فَوْره ذلك، قاصِداً إلى لَوْشة، مع مَن اتّفق معه مِثْل ابن البَرّاء الكاتب وغَيْره.

وكانت هذه ثِقَةً قَدِيمةً بَيْنهم مع بني مالِك عُمَّالِ لَوْشة، أنّه، متى دهمهم أمرٌ، لَجَؤُوا إليها. فنهضوا من فَوْرهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة، ولحقوا بها ليلاً. ودخل المدينةَ، ولم يمنعه أَحَدٌ لمكَانتِهِ مِنّا؛ وحسب القائدُ ومن فيها أَنَّه رَسولٌ. فصار في قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ، وصرخَ فيهم بالبُكاءِ، وافتعل الكذب، وقال لهم: «لم أَخْرُجْ من غرناطة إلاّ كما تَرَوْنَ: «بطَوْقي على عُنُقِي»! وتركتُ فيها النصارى قد استَحْوَذوا عليها؛ وكُشِفَ عنّي! فاثبتوا معي ونَوَجِّهُ إلى كلِّ سلطان: فمن أجابنا، اعتَضَدْنا به!» وخاطَبَ بذلك

---

[1] أصل «نجترموا».

حُصُونَ الغَرْب، يأمُرُهم بالخِلاف؛ وأَرسل إلى زَنَاتَةَ المُخْرَجين، ليكونوا معه مُضَيِّقين على * [ق ٥٦ ب] غرناطة. وإنَّ أَهْلَ الجِهَة مع أهْلِ الحصون، لمَّا سمعوا ذلك، دبَّرُوا رَأْيَهم. وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يطَّلِعُ صُورةَ الأمر؛ فإن وَجَد خِلافَ قولِه، لم يُخربوا وجوهَهم معنا؛ وإن أَلْفَوْه حَقًّا، نظروا لأَنْفُسِهم. فأتونى أفواجاً مُعَزِّينَ ومُهنِّئينَ على السلامة من النصارى، ومُسْتَفْهِمينَ جليَّةَ الحال. فأَخْبَرْتُهم بالأمر على وجْهِه، ولم يروا شيئًا مِمَّا ذكر مُؤَمَّل. فطَابت أنفسُهم، وعلِموا أنَّه مُخالِفٌ مُنافِقٌ. فبادَرَ الكلُّ إلى مُنازَلَتِهَ، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة.

وكُنْتُ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوشة، قد أَبْلَيْتُ لهم عُذْراً، وأَرْسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلاً تأمِّنُهم ممَّا خافوا، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبة فى إيثار الفتنة، وأنِّى مُطلِقٌ إليهم أهاليهم، ويخْرُجُون عن الحصون حيث شاؤوا بأمانٍ ووثائقَ؛ وهم فى هذا كله، لايزيدون إلاَّ طغيانًا وتهَدُّدًا، بانِينَ على الشرِّ، طالبين للثأر بلا ثأر. فلمّا يئسْتُ منهم، مع اتِّفاق الحصون عليهم، أرسلتُ بالعسكر، وقوَّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجَّاج، سنذكر وَجْهَ مُصاهَرته لنا بعد هذا؛ فنهض؛ فلم يَكن إلاَّ ساعةُ وصوله، وجَزَعَ مَنْ معه فى القَصبة، وخَلَتْ عليهم؛ ودخلها العسكرُ، وأُسِرَ فِيها هو وكلُّ من معه. وأتانا من ذلك فَتْحٌ عظِيمٌ.

وأَمَرْنا بثِقَافها وسوقان الأَسْرَى، وثقَّفْناهُم مُسْتَفْتِينَ فى أَمْرِهم؛ فأَفْتَت السُّنَّة أنَّ قَتْلَهم غير جائزٍ إذ كان نفارُهم جَزْعًا، على أنَّهُمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الأرض غَيْرَ لَوْشَة، وإنَّما أرادوا الفسادَ فى الأرض؛ وآخَرونَ يقولون بقَتْلِهم. فآثرت الأليقَ والأبْعَدَ من الآثام، وأنَّ ذلك لا يفوت؛ ومن أخلاق الكِرام التأنِّى والعَفْوُ عند المقدرة. فأَوْجَبَت السياسة تثقيفَهم والشدَّة عليهم، لئلاَّ تكون طرقةً لغيرهم؛ وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أَضَرِّ الأشياء؛ فلا غَفْلَةَ لمَلِكٍ يَقْظَانَ فيه.

وخاطَبوا، مدَّةَ كَونِهم بلَوْشة، كلَّ رئيس بالأنْدَلُس، حتَّى صاحب مالَقة. فلم يجبْهم * [ق ٥٧ أ] أَحَدٌ. فلما يَئِسَ مُؤَمَّلٌ منهم، أَرْسَلَ إلى أمير المسلمين، يُزَوِّرُ عنده الأمر كلَّه، ويكذب، ويقول له: «لم نُؤْتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى، والقيام بدعوتك» حُجَّةً لاتقوم على ساق. وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبِلاً مع نُعْمان؛ فانصرف لمَّا عُلِمَ بأَخْذِها.

٦٤ - وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله

وكان نُعْمانُ المذكور ممّن فَعَلْنا معه جميلاً، وأحْسَنَّا إليه لحُرْمةَ القرابة والانقطاع إلينا من المُرابطين؛ وزال عنَّا بعد إعماله الدواخِل علينا فى حصوننا الغربيّة، وعَقْدِه مع أهْلها أن يصيروا فى طاعة المُرابطين متى دُعُوا. وكان له بتلك الجهة إنْزالٌ؛ فتمكَّن من القُرْب والعَمَل بذلك، وخرج عنَّا بسَراح ادَّعَى من أَجْلِه أنَّ له بالعِدْوَة ميراثًا ومالاً يُريد اقتضاءَه؛ وأَخَذ له النهوضَ؛ وإذا به يَسْعَى علينا. وقال للأمير: «نُفِيتُ من مدينتى من أجْل نصيحتى لك ومَحَبَّتِى فى دولتك!» أَمْرٌ لم يكن منه حَرْفٌ. حتَّى إنَّ أَطْواقى، إنْ تكلَّمَتْ، لسَعَتْ علىَّ، للقَدَرالذى شاءَهُ الله، عسى لعاقبةٍ محمودةٍ إن شاء الله.

فعَمِلَتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أَمير المسلمين، مع ماصُوِّرْتُ عنده بكثرة الأَموالِ المكذوبِ عليها والـمُنْتَفَقةِ فى طاعته والجهاد معه لو بَقِيَت الحال.

٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله

وإنَّـا فـي تلك الفترة، رأينا من الصـلاح النظَرَ لـمن مَعَنا من البَنَـات وتَزْويجَهُنَّ قَبْل أن يفجأ أَمْرٌ، فيَكنَّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيل. فتخيَّرْنا لهُمَا من بنى عمِّهما شـاكِلةً، منهم مَعَدٌ ابـن يَعْلَى، للذى كان عليه من النجابة والعقل والمحَبَّة؛ فصَدَّنا عن ذلك أَهْلُ دولتنا، وقالوا نصيحةً وحَسَـداً: «إنْ أنـت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّـك، حَمَلَتْهم دالَّةُ القرابـة مع الـمُصاهرَة علـى الظهور عليك وفسـاد حالك بصلاحهـم. فإياك! وعليك بمَنْ هـو دون قِيمَتِك؛ فيُراعى إحسـانَك، ويَرَى هذا منك كثيراً، ويَرَى عيالَه بعَيْن مَوْلاه؛ وإن هو تحرَّك إلى شـىءٍ، قعدَتْ بـه دقَّة شـأنه؛ فلا أتباعٌ يُهاودونه.» فقبلْنا ذلك حـذراً * [ق ٥٧ ب] على الدولة، وقُلْنا: «من صَلُحَ من قرابتنا، نُدْرك فعل الخير فيه دون مُصاهَرةٍ تُطْغِيهِ!» .

وكان مـن بعـض خَدَمَتَنا مَنْ حَضَّنا على يوسـف بـن حَجَّاج، لِعِلْمِه بأَخلاقـه مدَّة صحبته له؛ ووَصَفَه بصِفَاتٍ ظاهِرُهَا يشـبه المشـاكلة. وذلك أَنَّه قال: «فى الرجل انقِباضٌ واسْتِيحاشٌ من النـاس؛ وبذلك تأْمَن من إجماعه عليك؛ وفيه شُـحٌّ كثيرٌ، لايُخْرِج خَـيْرُهُ من منزله؛ وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوَافِقُ مُعاشَرَةَ العيال؛ وبه حَرَجٌ ونَزَقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية؛ وهو من نقصان البيان وعىِّ اللسان ما لا يطْبى بذلك الناس لتأَلُّب، إن شـاءه عليك، ولا نقض لفعالك أو مَقالك والرجلُ من أوسـاط الناس ومِمَّن لا ينتمى إلى مَلِكٍ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أَصْلَ له فيه. فهو بين يديك كالكمأة التى إن شِـئتَ قَلَعْتَها، لم تتعذَّر عليه من أصلِها، أو كالصَّمْغة، إن شـئتَ فرَّغْتَها، ظَهَرَتْ؛ وكانت لك المنَّة والخيار! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأَتُك، وابنُ وزير جدِّك، وله من بُعْد الهمَّة وَكَرَم النفس وحُسْـنِ السـمت والوقار على حال الحداثة ماتُرْجَى بَرَكَتُهُ؛ وليس بمُنقِدٍ قدرُه. وإن أنـهـضْتَه إلى أمْر، جدَّ فيه، وأنت آمنٌ من سوءِ العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابْنَه إلى دَرَجة تُقِرُّ عَيْنَه. والأَوْلَى أن يدعُوَك صِهْرُك «مَوْلاى»، من أن يكون لك مِثْلاً؛ فتشقى أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لايحتمل سَيْفَيْن، ولاندرى مَن السلطانُ فيكم، إلاَّ من ارتَضَيْتُه وقدمْتَه.» .

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أمْرى بالأَحْزَم، ووَكَلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهْدُ الاستطاعة؛ ودون جُهْدِك لا تُلام. ولله أن يقضى بما شاء!» .

ولَـمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة، شَـرِهَتْ نفسُـه إلى وزارة الدولة، مَقْطَع من لم يميِّز المذهـب. ولم نكـن بعد وزارة سِمَاجَة نسـتعمل لذلك أحَـداً. فكأنّه وقع فى نفسـه التقصيرُ به، جهالةً من الإنسان * [ق ٥٨ أ] بقدره له مُهْلِكَةٍ، وتَرْكِهِ صيانَةَ قدره له فاضِحةٍ.

٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

وكان أهـلُ دولتنـا على مَذْهَب جهالةٍ فى هذه الأُمـور: إنَّ كلَّ أحَدٍ منهم يُريد أن يعمل برأْيـه، وأن تجـرى الأُمورُ على هواه؛ فإن لم يتَّفِـقْ ذلك له، صار فى حيِّز الأَعْداءِ؛ ولو كان

على مرغوبهم، ما اتّفق لرئيس عَملٌ، ولا تَمَّ له شـيءٌ. وكانوا قَبْلَ أيّامنا قد شـغلهم الخَوْفُ من صولة رؤَسـائهم: ماكانوا يَرَوْنَ السـلامةَ غَنِيمةً . ولـمّا تَمَّ لهم فى أيّامنا الأمنُ، وأنسيتُهم ما مضى، أدرَكَهم الأشـر والبَطَر، إلى أن تطمح أنفُسُـهم لغير ذلك. وكُنّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعداوة. وخانَنَا القياس؛ وكذلك العاقِلُ الـمُتمَرِّن لايَجب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسه، ولا يعمل حسابَه وَحده . فليس كلُّ النّاس على مَذْهَبك، ولا هواه مُطابقٌ لهواك ! ولا محالة أن باختلاف الأهواءِ تَقَع العداوات، وباتّفاقنا تكون الـمُصاحَبة وحُسْـن الـمُعاشرة. وأصدق الناس مَنْ يكابدُ معك، ودهاه مثْل الذى دهاك، وإن كان من الأباعِد؛ فلا تستريح إلا إليه؛ ولا تشْـكُ هَمكَ مع من لم يعْنِه ماعَنَاكَ: فإمّا سَـاهٍ عن حَدِيثك، وقدْ أكْثَرت عليه، وإمّا مُخَالِفٌ لـمَذْهبك، قد استهدفْتَ إلى عَدواته، وأحْدَثْتَ فى نفسه ماكنت غنيًّا عنه.

هـذا طبـع البَشَـريّة: فلا تسـمع ممّن يريـكَ التحقيق بكلامـه؛ فإنَّ الحـقَّ ثقيلٌ على النفوس، والباطلَ إليها أسرع، وعليها أخَفُّ. ولَـمّا علم الشيطانُ حِيَلَ الإنسان، لمَجْراه منه بمنزلة الدّمّ، أتاه من قِبَلِ هواه. ولا سبيلَ أن تَلقى أحدًا عَدِيمَ العَقْل: كلٌّ قد أخَذَ من التجْربة حِصَّته، وحاز اختياره؛ وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إلَيْكَ عجزٌ وكلفةٌ: فإن كان رَيِّضًا، فهو بشأنه أبصـر؛ ولعـلَّ له عذرًا، وأنت تلـوم؛ فتُولِد عليه انقباضًا منك وتَحَفُّظًـا لئلّا يُريك الخِلاف حتّـى يأتى بما اعتـزم عليه. وإن ألْفَيْتَهُ جاهِلاً، فمن العناءِ رياضـةُ الهَرِم، لم تَزِدْه أكْثَرَ من نَقْلِه* [ق ٥٨ ب] عن ودَّه ، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه.

كَيْـفَ مارَوَّيْتُ فـى الأمْر، أجِدُه جَهْلاً مـن فاعِلِه وكُلْفةً، إذْ لا تأْدِيـبَ يجمل بالـمُعَلِّم ولا الـمُتَعَلِّم. اللّهُمَّ إلّا من شُـورَ فى أمْر، فعليه أن يعطى ماعنده من غير إلحاح، ولا يتمرَّن فـى انتظـار طاعةٍ؛ فيكون الناصِـح، إن سُمِعَ منه، تمادَى على صداقتـه وخُولِفَ فى غِشٍّ. فما قام خَيْرُكَ، يازَمان، بِشَرِّكَ !

لـو أنّـى أعْـلَم أنّ بخلافٍ يَسـير على القائل يُنْتَقَـل إلى حيِّز العداوة، لم أُشـاوِرْهُ فى أمْرٍ أبَداً: وأكونُ قبْل مُشـاوَرَته مخاطِراً حَذِراً الذى نَخْشـى منه، أشَـدَّ علىَّ من عاقِبَة الأمْر المعـروض عليه. فالعاقِلُ يقيسُ على هذه المعانى ويحرز بهـا صديقَه. فرُبَّ عداوة تتولَّد بأرَقِّ سَـبَب، أو عداوةٍ تعُود إلى مُوَدَّةٍ، عند الحاجة إلى التعاوُن أو الانخراط فى سـلْكٍ واحدٍ من عـارضٍ يعمُّ أو مَرْغوبٍ يُرَامُ ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاءً.

ولا خَيْـرَ فى عَقْل لا يتصرَّف تارات؛ والـمَذْهَبُ السَّـرْمَدىُّ راكِبٌ طريقةَ الجَهْل، واقِعٌ فـى الورطـات . ومن الحقّ ما يسـمج، فـلا تقوم حلاوتُـه وفرضُه بما يعقب من الـمَشَـقَّة؛ والعاقِلُ يتخيَّر الأمور؛ فيَتَجَّنب معسورَها، ويتَوَخّى مَيْسُورَها.

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرَتَيْن أُخْتَى المؤلف

وللقائِـل، إنْ يحْتَـجَّ على هذا النِّكاح : ما الذى أُرِيدَ به ؟ إن كُنّا غالبين، فقد اسـتَغْنَينا عنه؛ وإن كُنّا مغلوبين، لم يَفِدْ ذلك! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع!

وإنَّما أردْنا اكتســابَ الحَسَــنة مع السَّــتْر؛ وإنَّه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكْتَفِياً بامرأته، يُقَلِّعها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدَّةً، ويُقِلّ طمعُ كلّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتِهما. فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأنْدَلُس رَامَ ذلك؛ وتوَقعنا العاقِبة إن فَعَلنا: تنشّبْنا فيما لامَرَدَّ فيه، ولا يُنفَكُّ عنه إلَّا بالأموال الجسيمة التى هى أوْلَى بالبَذْل فى إقامة أود المملكة وماكُنَّا بسبيله من الجهاد؛ وإن أبَيْنا، وقع الخِلافُ وَالحِقْدُ من الطالب، بحيث لايوافق؛ على أنه لم نحسب حسابَ ما جَرَى.* [ق ٥٩ أ] ولو كُنْتُ أعلم الغيب، لاسْتَكْثَرْتُ من الخير. وكان زماناً لم نحســب فيه حســابَ خَيْرٍ خرَجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ. ولا قِسْـنا على شىءٍ من الشرّ إلاّ ولم نبلغ مِعْشَارَ مايكون منه، بل يدهَى منه أمرُّهُ وأفْظَعُهُ.

ولقــد قال الـمُطالِبون إنَّ أمير المســلمين كان أحَقَّ بها، وإنما فَعَلْنــا ذلك فراراً منه. وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعَّد الشَّــرف، ويُدْعَى إلى مافيه حَياتُه، فيأباهُ! ولو أنَّنى أشــعر بشــىءٍ من ذلك، ونَــرَى أنَّ الـمَذْهَبَ فى هذا، لكنْتُ أشــدَّ الناس اغـتـبـاطــاً بالأمر، وإليه مُسارَعةً، وعليه حِرْصاً.

ولم يكن مَنْ ألَحَّ فى ذلك أكْثَرِ من الـمُعْتَصِم – رحمه الله –؛ فبادَرْتُ إلى ماتقدَّم ذِكْرُه، خَوْفًا من كلّ ماذكَرْناهُ. وإنه، لـمَّا تواتَرَتْ على أمير المسلمين فى هذه الأنباءُ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ماهى، عَمِلَتْ فى نفسه.

وانقطع رَجاءُ مَؤَمِّلٍ بِلَوْشــة من أن يجيبَه ســلطانٌ من الأندلس؛ وعند ذلك، خاطَبَ أميرَ المســلمين؛ فلــم يَصِلِ الخطاب، وهَيَّأ العســكر إليها مع نُعْمان، حــتَّــى انقضى خَبَرُها على ما وَصَفْناهُ.

٦٨ - تدخُل الأمير عبد الله فى مسألة مُرْسِيَة وغضب المُعْتَمِد

واعْتَقَدَ الـمُعْتَمْدُ دُخولَ النصارى بَلَدَه ومُحاشــاتَهم لِجِهَاتى، مع ماكان فى نفســه من أمر مُرْســيَة. فإنَّ ابن رَشِــيق قال لى مشــافَهةً، ونحنُ على لِيِّيط: «أريدُ أن أكون صَنِيعك وأدخُلَ فــى جُملتــك.» وقال لى رَسُــولُه بعد ثقافه: «لو أنــك تقبل مَنْ تَخَلَّفَ فيهــا، لأقامَ الخُطْبَةَ باسْمِــك، وكانت فــى طَاعَتِك! تَجِدُهُ ويجِدُك! فأبَيْتُ هذا القول جُمْلةً، وقلتُ فى نفســى: «هذه نَصْبَةٌ لم يكَدْ أصحابُنا يتخلّصون منها إلّا بَعْد المرام الشديد والكدِّ العظيم! رُدَّ منهم هذه الـمشقّات! فلا يعْترضها هذا الوَقتَ إلاّ جاهِلٌ بالزّمان! وليت لو سَلِمْنا من هذا كله! وإنه مَنْ أمَّلَ أن يُبقِى بَلَدَه بيده، فقد شرهَ إلى كثير، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أرَى وأمَيِّزُ؟

ولـمَّا قامت علينا اليُسَّــانَة، على ماقدَّمنا ذِكْرَه، كان ابن الأحمَرَ يُداخلُها، ويَعِدُهم ويأمُرُهم بالتــثَــبُّت، حــتَّى تبدو إليهم الأحوال؛ ويَبْلُغُنى *[ق ٥٩ ب] من ذلك مايُقْلِق. فأردتُ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَة مَن يعقد ما ابتدأنى به رَسولُهم ابنُ يَكون، الـمُتَصرِّف فى خِدْمَتِهــم، ويقول لهم أن يُبَيِّنوا كيف يريدون مُحاولة هذا الأمر: إن أرادوا القيام بدعوتنا لـمُلِمَّةٍ متى كانت، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا؛ ومافائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به؟

ولـمّا توجّه مِن ثقاتنا لذلك مَنْ أنْفَذْناهُ، اعْتقَدَها الـمُعْتَمِدُ فى نفسه؛ على أنّنا لم نكنْ نغرم على ذلك أبَدًا أكثر من طلب التّعِلّات عليه آخرَ ذلك بأنْ نسمع منه ما لا يوافق؛ فينتقض العمَل بسَبَبه، أو تُوقفَ الحالُ إلى أمدٍ مّا؛ كالذى يَقَعُ بين الملوك من الـمُداخلات والأعمال: فمنْها ما لايتمُّ، أو يتمادَى إلى حين .

٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسَبْتة من قِبَل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها

وإنَّ أمــير المســلمين، لـمّا أتى سَــبْتَةَ، وهو قد أحشــد وأعدَّ، قاصِــداً إلى جِهَتنا، لايريدُ غَيْرهــا، أرْسَــلْنا إليه رُسُــلاً مقدَّمَــةً، بعد عِتاب كبير جــرى بيننا وبَــيْنَ المُعْتمِد على خبَر مرسِيَة، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه.

وحانَ وصولِ أميرالمســلمين إلى سبتة، وقدم رُسُــلُنا عليه، وهم: ابنُ سَهْل القاضى المتقدِّمُ ذِكره، المُسْتَعْمَلُ للعملة الموصوفة، وباديسُ بن زاوِى من تَلكاتّة، يهنّونه على سلامته ويتلَقّوْن بالرَّحب قدومَة ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه فى جهادِه، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرســولان المذكوران، يعلمانى أن أمير المسلمين قابِل لكلِّ ما ذَكَرْناه؛ قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول مالا شك فى مَحبَته.

فســرَّنا ذلك. وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شــاءَ! لســتُ ممن يكلّف أحَدًا إلّا طاقَتَهُ!» فكان ذلك منه دهاءً وحِذْقًا، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ، من قِبَل ابن سَــهْل بالمُخاطبة وغَيْره، أنّ نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكتْبة الواردة من عنده، وأنْ المُداراةَ بالقول أوْلَى، حتّى يُظْهِر ما شاءَ ويمهِّد لعَمَله بذلك.

وإنَّ ابن سَــهْل. * [ق ٦٠ أ] لما رأى من خِلاف الجُنْد، واطّلع عليه من أنفُس أهل البَلَد مــا اطلع، قدَّم لنفســه، ورأى ألّا يُخلِى من عَمَل يقرِّ به فيمن تقــرَّب. وأعْلَمه أنَّ البلدة ليس عليــه فيها مُخْتَلِفٌ، ونفث بذلك باديــسَ المذكورَ. وصحّ عندى وقتَ انصرافهما أنَّ ابنَ زاوى قال: «أرْسَــلْنا للخِدْمة له فى زعمــه، ولم نَصْنَعْ غير أنّى كَتَّفْتُه، والقاضى ضرب عُنُقَه!» إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبة.

* * *